في الأدب الإنجليزي

٣ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

لم يحاول شكسبير اظهار شخصيته من خلال رواياته ، ولكن كارليل يقول عنه : « إن روايات شكسبير هي كنوافذ متعددة يظهر من خلالها ما كان يدور في نفسه من الأفكار والخواطر » . ومن كل رواية من رواياته يمكننا أن نتبين الحالة العقلية التي كان فيها لما أنشأها وكتبها . ففي هملت لم يكن تفكيره محصوراً إلا في البحث في الأشباح ، بينما كان في مكبث مشتغلا بالسحر والسحرة

وفي كل من روايتيه تتحقق النبوءات التي تتنبأ بها الأشباح والساحرات . ولكن هناك ثمة فرقاً ضئيلاً بين كل من الروايتين ، وذلك الفرق هو أن نبوءات الشبح في هملت هي من أمور الماضي بينما هي في مكبث من أمور المستقبل

وقد قال جبسن عند كلامه عن العاصفة ما يؤكد هذه النظرية ، فهو يقول : « هل كان في استطاعة شكسبير أن يجعل من جميع هذه النبوءات الخيالية حقائق راهنة إن لم يكن يعتقد الاعتقاد كله بهذه الأمور من عالم الخيالات والأشباح ؟ »(١)

وفي رواية الملك هنري الرابع نرى هتسبر (Hotsper) يعارض اعتقاد جلندور (Glendower) أن في استطاعته أن يسخر الأرواح والشياطين في مهامه الخصوصية ، فهو يتحداه بقوله : « إنك تعتقد أن في امكانك مخاطبة الأرواح ولكن هذا في استطاعتي أنا وفي استطاعة أي رجل آخر . وقد قالك ياهذا أنها لا تجيبنا عند ما ندعوها أو نخاطبها »

وهذا الشك لا يلبث أن يزول عند ما يقدم جلندور البرهان الكافي فتخاطبه الأرواح كأنه فرد من أفراد جنسها ؛ وهذا الاعتقاد بالخرافات كان مستولياً على شكسبير لدرجة عظيمة حتى إنه كان يضع المجبين والمجانين والشعراء في مصاف من يستطيعون الاتصال بالعالم العلوي ، وفي رواية هنري السادس نراه يجمع بين ما هو في عالم العقائد وما هو في عالم الخرافة ، وقد لخص عقيدته في رواية هملت إذ يقول : إن هناك في السماء أموراً عدة يا هوراشيو Horatis مما ليس في استطاعة العالم البشري فهمها أو التفكير فيها »

أو حين يقول في رواية أخرى :

« يقولون إن زمن المعجزات قد انتهى وآن لنا أن نفكر في كياننا الفلسفي فقط فنجعل من الخرافات مسائل عصرية يقبلها العقل ويسيغها المنطق . ولما كنا نستهزئ بالمخاوف والأشباح متسترين برداء من العلم والمعرفة فعلينا ألا نكون عرضة لمخاوف غير مرئية وهذا مما لا يتأتى لنا »(١)

إن في استطاعتنا أن نستنتج من هاتين الفقرتين السابقتين أن شكسبير كان يؤمن بالخرافات والغيبيات ، فهناك عدد غير قليل من الأمور التي ليس في استطاعتنا فهمها أو التعبير عنها . فلا يمكن مثلاً انكار وجود عدد من المعجزات التي يكثر حدوثها فوق ظهر هذه البسيطة ، وما العالم العلوي إلا محيط لا يمكننا حل ألغازه وتفهم معانيه . فان من طبيعة البشر أن يكونوا خاضعين لعالم غير عالمهم يجهلونه ويخافونه ، وما المحاولات التي يقوم بها العلماء لاسناد كل ظاهرة طبيعية إلى عاملها العلمي إلا محاولات خالية من الاقناع وطريق البرهان

قلنا إن شكسبير كان يؤمن بعدد من هذه المخلوقات الغيبية ، وقد جمعها في رواياته محاولا اظهارها بصور رائعة من الخيال والسمو الفكري ، وأولى هذه الأنواع وأهمها هي ظاهرة الجنيات

الجنيات (Fairies)

إن هذه الجنيات هي بقايا المعبودات والآلهة المحلية التي كانت سائدة على القرى الانكليزية في عصر من العصور ، وما العقيدة الشائعة أن هذه الجنيات قد تسلسلت من الآلهة اليونانية والرومانية القديمة إلا حديث خرافة لا أصل له من الصحة والصدق . وهناك نفر غير قليل من النقاد يرجعونهن إلى أصل بشري ، فما هن إلا ذرية سكان بريطانيا الأقدمين الذين طردهم الكلت عند استيلائهم على البلاد ، فلم يجدن غير الغابات ملجأ يلجأن اليه ومكاناً يستطعن العيش فيه مدة حياتهن

(1) Gibson Sh Use of the Supernatural P. 6

(1) Bll is Well . . . II 3 . 1

القادمة ، وأصبحن يعرفن فيما بعد بالجنيات

وهذه المخلوقات العجيبة كانت على أنواع عدة ، فمنها ما هو أسود اللون ، ومنها ما هو أخضره أو أبيضه أو رماديه ، وفى كثير من الروايات يصفهنّ شكسبير ، فهو يقول فى موضع من روايته (نساء ونسور المرحات) واصفاً إياهن بقوله : إنهن سوداوات اللون أو رماديات أو خضراوات أو بيضاوات

وكن لا يخرجن إلا فى غسق الليل ، فيعقدن مجالس الأنس والطرب تحت ظلال الأشجار ، بينما أهل الأرض نيام . وفى (العاصفة) نرى بروسبيرو يخاطب إحدى هذه الجنيات قائلا : « ستخرجين الليلة وبصيبك فيها برد شديد ، قد يؤدى إلى تشنج فى أعصابك فتألمين منه أشد الألم ، وستحيط بك الجنيات فى الليل فينفذن فيك ما لهن من قوة »

تعيش الجنيات فى الحقول المغطاة بالأزهار والرياحين ، أو فى الأماكن الخلوية من اليابسة والماء ، سيان عندهن التلال والوديان ، الغابات والروج ؛ وكثيراً ما تراهن بجوار الينابيع وضفاف الأنهار ؛ أو فى أعماق المحيطات والبحار ، وقد وصف الشاعر أحد هذه الأمكنة بقوله : « إنى لأعرف شاطئاً تهب عليه الرياح ، وتنبت فيه أزهار الياسمين والزنبق محاطة بالورود الجميلة المنظر » أما الملكة فهى تود الاجتماع فى جميع الأماكن التى اعتدن فيها اللقيا ، فهى تلقى الأوامر على أفراد رعيتها قائلة : « لنلتق على التلال أو فى الوديان ، بجانب الينابيع المرصوفة ، وعلى شواطئ الأنهار الذهبية ، أو فى أعماق البحار الرملية ، وهناك نحتفل برقصنا على موسيقى الرياح الهائجة »

إن أشهر أسماء هذه الجنيات التى ذكرها شكسبير فى رواياته ثلاثة أولها أبيرون (Oberon) الذى يعتبر ملكا على هذه الطائفة من المخلوقات ؛ أما تيتانيا (Titania) فكثيراً ما يطلق عليها اسم الملكة ماب (Queen Mab) وهى تعتبر باعثة للأحلام كما يظهر من رواية روميو وجوليت : « انى لأعتقد أن الملكة ماب كانت معك فهى وسيطة الجنيات وملكتهن لا يزيد حجمها على حجر صغير أو إصبع من أصابع الرجال ، وكثيراً ما تصيح بشكل ذرة ترتكز على أنوف الناس عند نومهم » فهى تبعث الأحلام والأخيلة اللذيذة ، ولكنها لسوء حظ البشر فى صراع دائم مع زوجها الملك أبيرون ، ومن هذا الصراع قد يتأتى ما يتأتى من الشرور والأضرار لبنى البشر . أما آخر هذه الأسماء وهو بك (Puck) فهو رسول الملك وحامل أوامره

فى الفقرة السابقة رأينا الملكة ماب بحجم صغير ، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الجنيات ذوات حجم ضئيل ، وقد وصفهنّ شكسبير فى رواية العاصفة بقوله « حيثما تهبط النحل أهبط أنا وفى استطاعتى أن أنام داخل جرس من الأجراس فأتخلص من نعيق الغربان والبوم » . وقد يتمكنّ من الظهور بحجم أصغر فيختفين داخل كؤوس الشراب

ولا ينتظر من هذه المخلوقات الضئيلة إحداث أمر سيئ للبشرية لولا أنها فى نزاع دائم مستمر . نعم إن صفاء نيتهنّ كان سبباً فى خلق بعض الآلام إلا أنهنّ كنّ لا يلبثن أن يزلن ما أحدثن بمهارة وروية . وكثيراً ما تراهن يتعاطين المزاح فيروعن فتيات القرية ويخفنهن فرأينا إيموجن (Imogen) فى سيمالين (Cymbeline) تخاف هذه المخلوقات وتسأل وصيفتها أن تلازمها لتحميها منهن فهى ترجوها قائلة « أرجوك حمايتى من الجنيات ودلاج الليل »

ولكنا نراهن فى الغالب يحفزهن حب الخير وعمله فيقمن بأعمال جمة لفائدة البشرية ونفعها ولا يعد روبن هود (Robinhood) إلا فاعلاً من فعلة الخير ومريديه . فهو يتلقى الأوامر من مليكه ويعرضها على أفراد الشعب وهو يستمع إلى أبيرون حين يقول : « على كل جنى أن يقف بالباب المعين له ، وعليه أن يبارك من فى الغرفة ويدعو لهم بالسلام والطمأنينة » . وكثيراً ما دعت الجنيات للأزواج الحديث العهد بالسرور والبركة وتلقفن أطفالهم بعين الرعاية والعطف حتى يشبوا ولم يعرفوا الألم قط . وهاهو أبيرون يقول « دعنا نذهب إلى فراش كل عروس جديدة فنبارکها فتلد غلاماً يلازمه السرور وترعاه العناية »

(يتبع)

شهرى محمد

ظهر حديثاً كتاب :

نقد كتاب حياة محمد

للاستاذ عبد الله القصيمى النجدى

فيه بيان الأغلاط العلمية والدينية الواقعة فى كتاب هيكل (حياة محمد)

ويباع بمكاتب القاهرة وثمنه ٢٠ مليما